

الألوان ليست على مايرام

معكم خالد اليحيا .. وهذا بودكاست قبس.. حيث نروي القصة.. فالقصة هي الأمل الوحيد للكبار الذين يرغبون في أن يكبروا أكثر.. ليعودوا صغاراً..

وبودكاست قبس.. يأتيكم اليوم من ضفاف الخليج.. من الدمام.. حيث قضيتُ ثلاثين سنةً أُنَدِر على كيفية ترتيب الروح بمرأى البحر والانغماس فيه.. لم أنجح بعد.. لكني مازلتُ أحاول.. خصوصاً أنني مطوق بالكثير من النبلاء هنا.. خصوصاً وبودكاست قبس يسكن منصة معنى .. تلك التي نشأت وترعرت في لحظات المشي الهادئة أمام البحر .. هنا في الدمام..

وحلقة اليوم اختار لها الثرثار سنان أن تكون بعنوان: الألوان ليست على ما يرام..

هناك أناسٌ تحبهم صفحاتُ التاريخ، وتفرد لهم الأقسام والفصول، تتفنن في إبراز نألي نجوميتهم، تدرس يومياتهم وأخبارهم، كأن آثارهم هي المعالم التي شيدت التاريخ، كأن مصير التاريخ بدونهم كان سيشق مساراً مختلفاً.. الإسكندر المقدوني، هارون الرشيد، أبراهام لينكون، نابليون... نابليون بالذات رُسم في المخيال -وبحكم المركزية الأوروبية- كواحد من مؤسسي اللحظات المفصلية في حياة البشرية.. ومعركة واترلو التي شهدت هزيمة جيشه.. تعد بحسب كثير من الدارسين واحدة من العلامات الفارقة في التاريخ.

لا أدري إن كانت قصة اليوم ترقى لأن تكون واحدة من أبرز العلامات الفارقة في التاريخ.. سأدع الأمر لكم..

وتبدأ القصة مع ماري.. التي عاصرت تجربة آلديني.. آلديني الإيطالي الذي صمم ونفذ واحدة من أغرب وأرهب التجارب في تاريخ العلوم..

قرر أن يقدمها أمام جمهور عريض.. باستخدام تكنولوجيا كانت تعد جديدة في زمانها..

لكن التجربة لا يمكن تنفيذها إلا من خلال متطوع..

وبشرط..

ألا يكون هذا المتطوع على قيد الحياة.. وإنما ينبغي أن يكون المتطوع ميتاً.. هو لم يهتم لأمر المتطوع بتاتاً.. بقدر ما يريد جسده الساكن.

حاول أن يحصل على متطوع على وجه الموت في إيطاليا، لكنه لم يستطع.. لم يتقبل أحد فكرة أن يتخلى عن قدسية جسده بعد الموت لأجل تجربة آلديني.

فاضطر أن يبحث عن مجرم على وشك الإعدام.. ولم تسعفه القوانين.. فالإعدام في إيطاليا كان يتم عبر المقصلة.. وتجربته الغربية تحتم عليه شخصاً قد احتفظ برأسه.. لكي تنجح تجربته، كان يتطلب ألا ينفصل الرأس عن الجسد..

فقبل له لم لا تذهب لبريطانيا.. فعقوبة الإعدام هنا تجري عبر المشنقة، مما يتلاءم مع احتياجات تجربته تماماً..

وفعلاً رحل إلى لندن.. وبحث عن المجرم المناسب.. ووجده..

جورج..

جورج فوستر.. كان من المفترض أن يظل جورج مجرماً مغموراً.. لكن اختياره للتجربة، جعل منه حديث كل سكان لندن. والذي ما إن تمت إجراءات إعدامه، حتى سيق جسده إلى الكلية الملكية للجراحين. وأمام جمهور غفير.. وقف آلديني.. أمام جسد جورج .. وأزاح الستار عن التكنولوجيا الجديدة التي جاء بها من إيطاليا.. عمود ينتج الكهرباء. وأعلن آلديني أنه -باستخدام الكهرباء- سيجعل جسد الميت .. جسد جورج فوستر.. يتحرك.. وتوجه بأسلاكه التي ربطها في أذني الجسد الخامد.. ليطلق تياره الكهربائي مخترقاً رأس جورج.. ففوجئ الجميع أن عينا جورج.. اتسعتا.. جحظت أحداقه.. وتشنج وجهه.. ثم كانت المفاجأة.. ارتفعت يده الميتة.. ساد الرعب في القاعة.. من هول الصدمة وفرط الرعب.. سقط شخص ميتاً.. في نفس اللحظة.. جورج فوستر لم تدب فيه الحياة.. لكنه اكتسب صفة من صفات الأحياء.. الحركة.. وراجت القصبة المرعبة في كل أنحاء لندن.. وتخللتها الكثير من الإضافات.. حتى وصلت لأذن فتاة صغيرة.. اسمها ماري.. كان والدها ممن حضروا تجربة آلديني.

بعد هذه الحادثة بثلاث عشرة سنة توجّهت ماري لتتعم بصيف دافئ في بقعة على هذا الكوكب.. على ضفاف بحيرة في

سويسرا..

في تلك السنة..

الألوان لم تكن على مايرام..

الأشجار لم تكن خضراء كما يجب..

الصباح كان رمادياً.. والأحمر.. الأحمر صبغ السماء..

الشفق لم يكن ذلك الذي يأتي للحظات قبيل الغروب.. بل كان يمتد لساعات طويلة.. طيلة فترة الأصيل..

كان جميلاً وفاتناً.. حقاً.. لكن الألوان لم تكن على مايرام..

ثم كان هناك اللون الأبيض..

لا يجب أن يكون هناك ثلج أبيض في منتصف الصيف!

كان المفترض في مثل هذا الوقت أن يتم جني المحاصيل.. لكن سقوط الثلج كان مفاجئاً.. صبغ الأرض بالبياض..

الألوان كلها ليست على مايرام..

فهطول الثلج في وقت الحصاد أباد كل الغلة الزراعية.. في كل مكان على وجه هذه الأرض..

كان ذلك عام ١٨١٦م.. لم يكن هناك تيلغراف.. ولا تليفون.. لا نقاش علمي.. ولا بيانات إحصائية.. ولا تنبؤات مناخية..

فزع الرهبان للصلاة.. خصوصاً وأن الشمس قد فقدت شعاعها.. وبدت ككرة من العاج.. حين يستطيع المرء أن يرى

الشمس في وضوح النهار: تدرك أن الشمس أيضاً لم تكن على مايرام..

اليوم نعلمُ مالذي جرى.. استغرق الأمر عشرات السنين من الأبحاث ومطاردةً مذكرات المزارعين اليائسين والرحالة في البحار، وكراسات المؤرخين، وسجلات الوفيات.. كي نلملم معارفنا حول ما حصل تحديداً في تلك السنة..
١٨١٦ .. السنة التي مرت بلا صيف..

السبب وراء ذلك اللغز.. كان ذلك الذي أيقظ السير توماس فزراً.. كان ذلك في مساء ليلة من ليالي أبريل في السنة التي قبلها.. في عام ١٨١٥م. حين ظن أن أصوات المدافع قد وجهت لقصره.
لأنه كان الفريق توماس.. القائد الإنجليزي في جاوا.. كبرى جزر أرخبيل أندونيسيا.. وهو يعرف جيداً كيف تدوي المدافع.. لأنه قبل سنوات سلط لهيبها باقتدار فطرد من جاوا أعداءه الفرنسيين.. الذين سبق وأن طردوا منها الهولنديين.. الذين استولوا عليها من البرتغاليين.. الذين حازوا عليها بعد مذابح مروعة أقاموها لسكان الجزيرة الأصليين.. في تلك الليلة.. تنادت البحرية البريطانية بأمر السير توماس لصد ما اعتقدوه أنه عدوان فرنسي جاء لاسترداد الجزيرة. لكن لم يكن هناك فرنسيون. ولا قراصنة. ولا سفنٌ تستنجد.
الصوت كان قادماً من مسافة بعيدة.. على بعد ألف كيلومتر من قصر السير توماس، كان ثمةً جبل.. اسمه تمبورا.. انفجر.

وأباد كل من كان بالجوار.
بركان تمبورا. الذي كان واحداً من أضخم الانفجارات التي عرفها الإنسان في تاريخه المدون. نحن نعرف القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما.. انفجار تمبورا كان يعادل أكثر من مليونين مثلها..
قذف البركان دخانه في السماء، وتسيد الرماد البركاني الفضاء، وحجب أشعة الشمس، وحول صيف الأرض إلى شتاء قارس.. تساقطت الثلوج في عز الصيف.. وتجمدت كل المحاصيل..

وفي بقعة على هذا الكوكب.. تسبب الصقيعُ بنزوح سكان الولايات الشمالية في أمريكا بسبب المجاعة .. وتوجهوا للجنوب.. واقتنعت السلطاتُ بضرورة شق قناة.. قناة إيربي.. التي جعلت نيويورك.. نيويورك..
واصل أولئك النازحون هجرتهم ومعهم أديعتهم وصلواتهم ورجاؤهم بالنجاة.. إحدى العوائل النازحة كانت عائلة سميث.. الذي رحل ابن لهم اسمه جوزيف ليعود قائلاً أنه وجد الألواح، ويؤلف كتاب المورمون ويدشن ديناً جديداً.. ما كان ليلقى رواجاً لو بقي الطقس دافئاً كما كان دائماً في الصيف.. ولم تجبر أسرته على النزوح إلى حيث وجد بالألواح..

وفي بقعة على هذا الكوكب.. في خليج البنغال.. اضطرب المناخ وتبادلت الفيضاناتُ أدوارها مع الرياح الجافة، لتغير حرارة المياه، وتولدُ سلالةً جديدةً من البكتيريا بمواصفات خارقة في ذلك الزمان، تسببت في أول وباء للكوليرا.. والذي تمدد من كلكتا.. إلى بومباي.. إلى بانكوك.. إلى مانिला.. إلى عمان.. وإلى بغداد.. وإلى زنجبار ليقتل عشرات الملايين من البشر.

وفي بقعة على هذا الكوكب.. في ألمانيا.. تسبب غياب الشمس في ذبول حشائش المروج ولم يجد المزارعون علفاً كافياً لخيولهم، ففضى عليها الجوع في الإسطبلات، ولم يكن في استطاعة المزارعين الجياع سحبُ جنث الخيول من مزارعهم..

فأقاموا لها المجازرَ الجماعية.. وقرروا التخلصَ منها.. جميعاً في وديانٍ بعيدة بإطلاق النار عليها.. ومن غير أن يضطروا لجرجرتها في الطرقات.

لكن عندما سيق الحصان داندي، حزن عليه الألمانيان دريس، وقرر ألا يُقضى على حصان بعدها، وصنع ما سماه حصان داندي.. الذي كان أول دراجة في التاريخ.

وفي بقعة على هذا الكوكب، في مقاطعة يونان الصينية.. عمّت المجاعة.. فباع الرجال أبناءهم وأكلوا الطين.. ومع الفقر الشديد، اضطروا للبحث عن الكسب المادي بأي ثمن، وتحولوا لزراعة الأفيون.. لتُدشّن صناعة الأفيون في المثلث الذهبي، والذي تسببت تجارته بحرب الأفيون، وتسليم هونغ كونغ للبريطانيين مائة سنة.

بعد شهرين من انفجار بركان تمبورا.. هطلت أمطار شديدة بغرابة **في يوم ١٨ يونيو** على ساحةٍ واحدةٍ من المعارك.. تسببت بإعاقة تقدم كتائب الجيش الفرنسي.. في بقعة على هذا الكوكب.. اسمها واترلو.. جرت معركة يقال أنها واحدة من العلامات الفارقة في التاريخ.. معركة واترلو التي هزم فيها جيش نابليون الذي عانى من تلك الأمطار.. التي تسببت بها ذلك البركان..

على عكس معركة واترلو، لن نجد للبركان صيتاً مدوياً في كتابات المؤرخين.. فالبركان لم يتجسد في شخص.. إنه ليس مثل نابليون.. ولا الإسكندر.. ولا هارون الرشيد.. لم يكن بطلاً نملك أن نتحدث عنه برومانسية.. ونختزل الأحداث في شخصه..

هل يرقى البركان.. بركان تمبورا لأن يحتفى به كأحد العلامات الفارقة في التاريخ.. البركان الذين يمكن أن ينسب له انتشارُ وباء الكوليرا، وزراعة الأفيون، وازدهار نيويورك، واختراع الدراجة، ونشأة ديانة المورمون، والأمطار التي تسببت في هزيمة جيش نابليون..

ولم يكن ذلك كلُّ شيء..

في بقعة على هذا الكوكب.. على ضفاف بحيرة في سويسرا.. فوجئت فتاة اسمها ماري بالثلج يهطل بغزارة.. ويحول صيف تلك السنة لشتاء قارس..

وهناك حبست في كوخها مع صديقها بوليدوري.. تحت الثلج..

وهناك.. في صقيع بحيرة جنيف.. في عام ١٨١٦.. ولد نوع جديد من الأدب.. لا يليق به أن يولد إلا في مثل تلك السنة.. كتب بوليدوري رواية مصاص الدماء..

أما ماري، الفتاة التي عايشت تجربة آلديري.. فكتبت قصة الدكتور فيكتور.. العالم الشاب.. الذي يقوم بتجربة.. يجمع فيها أعضاء إنسان ميت.. وتماماً كما جرى في تجربة آلديري.. يتعرض للكهرباء.. يعرضه للبرق.. أقوى تيار كهربائي يعرفه

البشر.. ليولد لدينا الوحش فرانكشتاين.. ويؤسس لفن رواية الرعب على يد ماري شيلي.. في سنة الرعب.. السنة التي مرت بلا صيف.. السنة التي لم تكن فيها الألوان على ما يرام..

هل يرقى البركان.. هذا البركان لأن يكون من العلامات الفارقة في التاريخ..
كما قلت في البداية.. ساعد الأمر لكم!
